الفصل التاسع

في السودان: جوبا

تعرضت مصر بين أعوام 1977 و1981 لواحدة من هجمات البأساء والضراء بما لايستطيع أحد تجاهله في مذكرات مثل هذه، حيث حاصر الرئيس أنور السادات في هذه الأجواء جميع عناصر المعارضة بما شملني بدوري. فقد بدأت سنوات الانفتاح الاقتصادي أو فك المترابط من قطاعات اقتصاد الدولة، تأتي بآثارها السلبية على حياة الشعب اليومية، وسط ادعاءات الرخاء الوفير القادم من صداقات أمثال "هنري كيسنجر" وزير خارجية أمريكا و"فاليري جيسكار ديستان" الرئيس الفرنسي، وكل ما أشبعه أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام وزين العابدين فؤاد وغيرهم لسعًا وسخطًا تمهيدًا لأحداث يناير 1977. كان ذلك إثر مغامرة انتخابية شبه شفافة أواخر 1976، ظنًّا من السادات وممدوح سالم رئيس وزرائه أن الأمر قد استقر لهم بما تمكنهم من المزايد بقدر من الحراك السياسي الليبرالي.

زاد الأمر تعقيدًا قوة الهبة الشعبية المعروفة باسم انتفاضة 18 – 19 يناير الشعبية التى أسماها السادات انتفاضة "الحرامية" لتقلب عليهم كل الموائد، إلى حد أن يفكر السادات نفسه في الهرب بجلده لولا التدخل السلمي للجيش، والمسارعة بإعلان تخفيض الأسعار.

وفي يوم تالٍ فكر السادات تفكيرًا آخر، بقطع الطريق على الأمريكيين، وصولًا إلى إسرائيل في نوفمبر 1977 ثم توقيع إطار اتفاقيات كامب ديفيد في سبتمبر 1978. سأفصل علاقتي بذلك فيما بعد، لكني أذكر هنا بالأساس حكايتي مع الذهاب إلى جامعة جوبا في أوائل 1981. كان ذلك عقب ذهاب السادات إلى واشنطن لتوقيع معاهدات كامب ديفيد في مارس 1979، وبدء عملية تطبيع العلاقات مع إسرائيل. شمل ذلك التطبيع مجالي الثقافة والإعلام في مصر، فانتفض المثقفون لمقاومة ذلك بتشكيل "لجنة الدفاع عن الثقافة القومية". ذهب أعضاؤها آخر يناير 1981 للتصدي لوجود إسرائيل في معرض الكتاب، وأنا وسطهم كأمين للجنة، لتلتقطني قوى الأمن أنا وصلاح عيسى ويأخذوننا إلى سجن القلعة ثم الاستئناف. قضيتُ هناك أسابيع ثلاثة يحتاج الحكي عنها لبعض التفاصيل أوردها في الفصل القادم.

وبخروجي ذات صباح من مبنى وزارة الداخلية وعودتي إلى المنزل، وإذ بالسيدة توحيدة زوجتي الفاضلة تقدم لي مظروفًا تركه لي الصديق العزيز عبدالرحمن أبو زيد رئيس جامعة جوبا، مع وصية شفوية لها بأن

"حلمي يجيلنا في جوبا أحسن من الهري دا!" إذ إنه أثناء زيارته للقاهرة وسماعه بما حدث لي زارني مباشرة في منزلي، وترك لي مظروفًا به تذكرة سفر للخرطوم وعقد تعييني أستاذًا بجامعة جوبا بمجرد خروجي. تيقنتُ من شيء واحد ساعتها، معنى أن يحتضن شعب أو صديق لآخر دون ضجيج أو سفسطة خطابية أو مزيفة! كان البروفيسور أبو زيد من الوطنيين السودانيين، المتعاطفين مع اليسار وهو رجل عملي اشتغل مع شخصية أخرى هامة وهو الدكتور السماني وأسسا معًا جامعة جوبا، بمساندة السوق الأوروبية المشتركه رغبة في تطوير ذاتي للجنوبيين.

في الخرطوم أحاطني الأصدقاء بما لا أحتاج لوصفه، سواء الذين كونت معهم هذه العلاقات على مدى سنوات التكامل المصري السوداني، أو من الثقافة المتبادلة، والكل سعيد بوجودي بينهم... وعوضني ذلك عن غمة أصابتني في القاهرة من أناس حولي بالضرورة، بدءًا من معارف رأوا فيما قمت به في المعرض ضد التطبيع "شططًا شبابيًّا" لا يليق بي، وانتهاءً بموقف إدارة التكامل بإشراف وزير ري جهول، أصدر أمرًا بإعفائي من مشورته في المجال الثقافي للتكامل مع السودان، حيث وجدت القرار الوزاري بإعفائي معلقًا على باب مدخل الأمانة العامة لشئون السودان التي كنت مستشاره فيها..!

شعرت في الخرطوم أني في طريقي إلى قلب إفريقيا، وأني في الخرطوم أو جوبا محاط بشعوب إفريقيا المناضلة فعلًا في إريتريا والكونغو وتشاد، على

الأقل بجانب صلاتي الممتدة إلى دار السلام وكمبالا، وبلدان الاستيطان الأبيض في الجنوب الإفريقي.

ولم ينقذ رحلتي إلا اتصال "بونا مالوال" بالقوات المسلحة لتحملني ضمن طائرات التموين العسكرية إلى جوبا...

كان الناس يشكون مر الشكوى في الخرطوم من ظروف المعيشة كما يحدث في القاهرة، وكان السادات والنميري يعيشان في حلف كامب ديفيد ولم يكن في تيتها إصلاح أحوال شعبيهما، وشملت مرحلة علاقتهما الحميمة نقل آلاف "الفلاشا" من إثيوبيا إلى تل أبيب أوائل الثمانينيات، عبر مطار الخرطوم. وشاهد أصدقائي وزير الدفاع الإسرائيلي وقتها "إرييل شارون" نفسه في المطار، وأبلغوني. وعندما كنت بالصدفة في أديس أبابا وفي عشاء ضم السفير الفلسطيني، وأبديت دهشتي من هذه المعلومات، تبرع بالقول إنه حَوَّل كل المعلومات عن ذلك مبكرًا للقيادة الفلسطينية، التي رأت إغماض العين وقتها تقديرًا لعلاقتهم بالنميري والسادات..! فحولت بدوري كل الأوراق لصحيفة "الأهالي"، التي أكملت واجبها الصحفي نحو هذه الكارثة.

حملتني الطائرة إلى جوبا حيث جمعني "أبو زيد" مع الرفاق في أقسام الاقتصاد والعلوم السياسية، فتعرفت على الراحلين طيبي الذكر "فاروق كدودة" و"عبد الماجد علي بوب"، أساتذة الاقتصاد والعلوم السياسية، كما توثقت صلتي بعبد الغفار محمد أحمد أستاذ الأنثروبولوجيا إلى جانب عدد

من الذين تبادلت الود معهم لأكثر من عام. وكانت جامعة جوبا ومدينتها الجامعية قامت بمنحة من السوق الأوروبية المشتركة أواخر السبعينيات ضمن مشاريعها في جنوب السودان، فجاءت مؤسسة حديثة بنسق ورَفْهٍ أوروبيين.

حين جلسنا جانبًا لنتحدث عن برنامج تدريسي، قال "بوب" إن الأستاذة "كارن بزيد" (زوجة رئيس الجامعة) كانت تدرس الفكر الإفريقي، وهي مضطرة للمغادرة إلى الخرطوم، وبما أني صاحب سمعة إفريقية عربية، فلأدرس الفكر الإفريقي العربي. وهنا ابتسمت كارن قائلة "بما في ذلك المقرر الرسمي: كتاب "النهج الإسلامي" للرئيس جعفر محمد نميري!" وابتسمت بدوري، ولم يكن الخوف شائعًا في جوبا أمنيًّا بدرجة لافتة لأن الأصدقاء كانوا يقولون إننا "في قاع الأرض... والدنيا أمان!"

الجامعة بين أنيانيا - 1 وأنيانيا - 2

جاء اتفاق السلام 1972 المبرم بين جيش الجنوب المقاتل وحكومة النميري، وتحت إشراف هيلا سيلاسي والمجلس العالمي للكنائس في أديس أبابا، جاء لينهي حالة القتال وليعيد أبناء الجنوب إلى صفوف الجيش السوداني. وكان قد أصبح الجنرال "جوزيف لاجو" وهو قائد أنيانيا- 1 حركة تمرد الجنوبيين الأولى ذا رتبة عالية في الجيش. كان الاتفاق مطمئنًا لأبناء الجنوب والعاملين معهم، ولم تعد تشغلهم بإلحاح قضية خطر التعريب والأسلمة

من قبل الحكومة قدر قلقهم من خبثاء الخرطوم بمن فيهم من الإسلاميين لتقسيم الجنوب. ضاعف من قلقهم إبراز الجنرال "جوزيف لاجو" قائد أنيانيا1- بديلا للزعامات التاريخية، وهو الأثر السلبي الباقية صيغته حتى الآن! (ظهور لاجو السياسي حتى الآن في الحياة العامة مؤخرًا، واستمرار الصراع والانقسام بين الزعامات التاريخية والجديدة). وقد أدى هذا لدفع أفكار "التمرد" أو "الثورة" مرة أخرى ضد "تسلل الشمال" بوسائل جديدة للسيطرة.

لذلك عشتُ أيام جوبا مع شباب في الجامعة وخارجها (81/ 1982) ممن يقولون صراحة: "نحن ذاهبون للغابة"، أي لبدء القتال ضد دولة الشمال. واشتعل فعلًا اشتعال التمرد عام 1983 بقيادة "جون جرنق" وزملائه. لم يكن التمرد في الجنوب جديدًا وإن أصبح "ثورة" مسلحة من أجل "سودان جديد" بقيادة "جون جرنق" فيما سمي لفترة بـ"أنيانيا- 2". وتقوم فلسفة جرنق على وحدة سودان جديد تراعي كل الأعراق ولا تفرق بسبب الدين أو الطائفة أو الإقليم. وقد كتب الكثير عن تطور الحدث في منطقة "بور" - منطقة قناة "جونجلي" - والتي هي منطقة النفوذ الكبير لأبناء الدينكا.

وقد كنت أتصور أن "جوبا" هي المركز الرئيسي للدينكا، ولكن ثبت أنها منطقة مختلطة مع المادي والباري والمورلي من المديرية الاستوائية، وأنها بذلك همزة وصل هامة بين قوى عرقية مختلفة في إدارة الثروة الحيوانية،

ومجاري المياه النيلية... إلخ. ولكن لأني كنت كتبت عن دراسات "فرانسيس دينق" أحد مفكري الجنوب البارزين عن الدينكا وعالمهم الذي يتصل في رواياته الشفوية بالشرق الأوسط، وأنه وصلتهم أوهام "الإسرائيليات" أيضًا في الاتصال – أو السيطرة – على محيطهم، فقد كنت متشوقًا أن أفهم أبعاد ما نقرؤه. لكن اللافت في كل ذلك هو أن صيحة العودة إلى الغابة ('To the bush') أو إلى الأحراش ('To the jungle') كما كان يقولها الشباب، كانت غالبًا ماتصدر عن أبناء دينكاويين. ورغم أن الكل يرددها فإني لاحظت قول البعض من أبناء الأعراق الأخرى مشيرين إلى أبناء الدينكا "خليهم يشيلوها المرة دي"، إشارة إلى أن "أنيانيا- 1" – وهي ثورة الجنوب الأولى حملها أبناء المديرية الاستوائية.

ولم تنجح محاولتي بما تخيلته من أعمال التهدئة والمصالحة بين الشباب على الطريقة المصرية. ولكن ظلت علاقاتي بالجميع قوية تتسم بالثقة. وعلى سبيل المثال كان من بين تلامذتي في قسم العلوم السياسية، شاب يدعى "جون أوكيك لوث" (J.O.Leth) ليس صغيرًا، لأنه برتبة عقيد في "أنيانيا- 1" وانضم للجيش بعد اتفاقية 1972. وحكى لي ومعه دراسته لدبلوم قدمه للجامعة عن حركته الأولى (باعتبار ماينشأ ساعتها هو "أنيانيا- 2") ليثبت لي أن الأغلبية كانت من أبناء الاستوائية بغلبة من أبناء الباريا كما كان هناك عدد من النيل الأعلى وبحر الغزال. والذي أشهد به هنا أنه أعطاني نسخة من رسالته – متضمنة مراسلات كان هو طرفا فيها مع قواعدهم في أوغندا، وهي التواصل المنتظم لتدريب أبناء

أنيانيا- 1 في إسرائيل، كما ذكر وجود خبراء التدريب الإسرائيلي في كمبالا وشمال أوغندا (فترة الرئيس "ميلتون أوبوتي") لتدريبهم مع العروض بالتسليح من الولايات المتحدة..! ولأنه كان بادي الود معي، ونموذجًا للعسكري الذي يحترم المواثيق العسكرية، باعتباره سلم سلاحه عقب الاتفاق في أديس أبابا، فإنه كان يتكلم معي بصراحة، ويحضر لي الشهود من أصدقائه. بل إنه ابتسم مره وهو يقول: "ألم يقل لك أصدقاؤك عما كتبوه عن تسليح المصريين للجنوبيين قبل مغادرتهم للسودان مضطرين للاعتراف باستقلاله؟" وأظنه كان يشير لكتاب للبروفيسور عمر بشير نفسه يحمل هذه الإشارة إلى رعونة صلاح سالم..!

كان الود متصلًا بيني وبين معظم الطلاب من قسم العلوم السياسية والذين لم يزيدوا عن العشرة. وكان ثمة شجرة كبيرة وسط ميدان في الجامعة أذكر أن بعضنا كان يسميها "الباوباب"، على اسم الشجر التاريخي الذي يجلس تحته المعلمون لتحفيظ القرآن وحتى التعليم الأولى في صحراء غرب إفريقيا وخاصة في مالي والنيجر. كان بعض طلاب جوبا – مِن الشماليين لأنها تقبل نسبة شمالية وكان بعضهم من المنحازين لجماعة الجمهوريين أو الإخوان المسلمين أو الشيوعيين ويقضون أوقات الراحة في حوارات حرة تحت هذه الشجرة. وكان غير مسموح للأساتذة بدخول هذا الحوار، حتى لو سمح بمرورهم للاستماع، وكان ذلك يشمل ترحيبهم بي.

لم تكن صدفة إذن أن يختار أبناء الدينكا "جون جرنق" وهو ضابط

بالخدمة ليخرج ويقود الحركة (أنيانيا- 2) مثلما فعلها من قبل "جوزيف لاجو" أحد أبناء الاستوائية وقائد أنيانيا- 1. وكانت هذه المرة أكثر صعوبة، إزاء وجود جيش النميري المنظم، ومهارات سادة الاتحاد الاشتراكي السوداني في لعبة الماريونيت، بعناصر النوير والناصرة أساسًا فضلًا عن أفضل استفادة من أبناء الدينكا في الحكم بين وزير، وسفير...

كان "مجلس الكنائس العالمي" يتابع اتفاقية أديس أبابا 1972، بإشاعة روح الوفاق، لكنه كان منتبهًا إلى محاولات النميري للعودة لسياسة الأسلمة في السودان عمومًا، ممتدة إلى الجنوب بالطبع، ولذلك كانت أجهزة "السوق الأوروبية" تخدم بإخلاص هذا المجلس، وتوفر بالفعل خدمات يصعب على حكم النميري توفيرها في ظروف الأزمة الاقتصادية. ومن هنا كان مشروع الجامعة التي بدت وكأنها مؤسسة أوروبية كاملة العناصر، حتى المكتبة الكبيرة التي استمتعت بخدمتها بما لم يتح لي في موقع آخر، فضلًا عن مواد لأقسام الطب، والبيئة، إلخ.

وكان يحيط بهذه الخدمة "الأوروبية" المتميزة، خدمات مكاتب الجمعيات الأهلية الأوروبية أيضًا ومندوبيها من شباب لا تهدأ حركتهم في أنحاء الإقليم. وقد لا يصدق كثيرون، أو يجدون معنى مقنعًا لوصول عدد هذه المكاتب لحوالي 45 مكتبًا ممثلًا لجمعية أو أخرى في مدة قصيرة عشتها في جوبا. جعل ذلك بعض الأصدقاء في هيئة التدريس يتخصصون في متابعة حصر هذا العدد في مدينة صغيرة مثل جوبا. ولكن خدماتها كانت تمتد

مـن العمل الخيري، لتدريب البنات، إلى محو الأمية، إلى التبشـير الكنسي بعدة اتجاهات مسيحية، إلى الزراعة البسيطة، بل وامتد النشاط إلى مكاتب لشركات قطع أخشـاب ألمانية شـهيرة صَدَّرَتها عبر شرق إفريقيا في طرق امتدت من أقصى الجنوب إلى نيروبي بمعرفة شركات ألمانيه معروفة.

أوحت أجواء هذه المكاتب لبعض الأصدقاء باسـتنتاج أن ثمة عملية لإعداد هذا الاقليم للانفصال.

وكان عـدم مبالاة الحكومة المركزية في الخرطـوم بتنظيم الخدمات أو المصالـح (وهي لا تفعل ذلك أصلًا في الخرطوم نفسـها) يغذي مثل هذا الاستنتاج عن حكومة النميري التي سقطت بثورة عارمة بعد عدة أعوام (إبريل 1985). ولم توجد في جوبا إزاء إهمال الحكومة خدمات ومواد حياتية كافية بينما كانت تأتي من الكويت مثلًا (كان الشيخ عبد الله الكويتي اسمًا رنانًا في دوائر الخدمات العامـة بالإقليم، وحزن الكثيرون لرحيله فعلًا) كما كانت بعض المساعدات المصرية للجامعة (أساتذة طب أساسًا) ومنح دراسية بلغ ما أعلن عنها (300 منحة سنويًّا) خبرًا مؤثرًا دائمًا مع المشكلة الدائمة أنه لا يوجد مرشحون مناسبون لها بسبب إهمال الحكم للتعليم.

يستطيع القارئ تصور المأساة الاجتماعية التي يعيشها شعب الجنوب بهذا الشـكل. وكنا نشـكو بالطبع لمن يزورنا من المسـئولين، دون مبالاة من أحد. حتى كبار التجار السـودانيين (يسميهم الجنوبيون الجلابة)، أو التجـار الهنود المخضرمين هناك بدورهم، كانوا جميعًا يحولون الموقف إلى

استغلال صارخ، بالعمليات التجارية أو الاستثمارية. حتى إن كان بعض هـؤلاء يتحدثون دون حرج، أن حالة الحرب أو عدم الاسـتقرار أفضل لهم، من أجل تحقيق الندرة ورفع الأسـعار، وأن هذا الاسـتقرار البادي، إنما يأتي عليهم بالخسـارة..! وأنهم لا يظنون أن هذا الاستقرار سيستمر! وكنـت والأصدقاء نتهامس، هل يصبح هـؤلاء عنصرًا من عناصر إثارة الاضطراب في الإقليم بدورهم مثل الأجانب، والمتصارعين المحليين؟

كنا نحن "جالية الجامعة" أول مَنْ عانى من عدم توفر بعض احتياجاتنا الضرورية مثل الزبدة أو "النسكافيه" أو بعض قطع الجبن أو اللبن الصناعي. وكان ذلك يسـتدعي الاتصـال بمكاتب "الجمعيـات" القائمة ولبعضنا "صديقات أو أصدقاء" فيها! أو المعرفة عن طريقهن بمن يقطع الطريق الـبري إلى نيروبي بين فترة وأخرى. في هـذا الجو زارتني زوجتي توحيدة ضمـن مغامرة مع الطائرات المحلية من الخرطوم ووصول ابني أيمن من جامعة "واد مدني" بأخباره وطرائفه عن حياة الطلاب وإضراباتهم هناك مما قفز بوعي أيمن كثيرًا وكانت زيارة الأسرة بهذا الإرهاق جزءًا من تحملها لمتاعبـي الدائمة كما كانت الزيارة جزءًا مـن إنقاذ الموقف المعيشي لبعض الوقت بمثل هذه الخيرات..! وفي متابعة أخرى اكتشفنا كيف تم الإعداد لطريق جوبا-نيروبي، أو نيمولي-كمبالا للحظة مناسبة قادمة وهي لحظة الانفصال والاتجاه بالجنوب إلى شرق إفريقيا.

أمـر آخر اكتشـفته أيضًا أثناء إقامتـي في جوبا، فقد كنـا أحيانًا نقوم

بمغامرات مثل الصعود لمرتفعات الغابات الكثيفة طبيعةً وجمالًا، كما صممنا مرة على زيارة "نيمولي" على الحدود السـودانية الأوغندية، وحيث تخرج مياه النيل من أول موقع للنيل الأبيض، وفوجئت وسط غابة كثيفة أيضًا، "بسرسوب ماء" ظننته مجرى محليًّا في مستنقع، وإذ به مخرج لما يصل من مياه بحيرة فيكتوريا إلى النيل العظيم! لم أخفِ دهشـتي ولا سخريتي... بينما أحد الزملاء السودانيين يقول: "لأجل ماتسمونه "سرسوبًا" احتللتم السودان..!"

ضحكنا ونحن نستعيد تعبير "مصر هبة النيل"..! لكن ظل حلمي أن أرى المخرج الرئيسي من بحيرة فيكتوريا نفسـها، حتى أتيح لي ذلك يومًا بزيارتي لمدينة "جنجا" قرب عنتيبي في أوغندا، حيث يجلس المهندس المصري بجانب "خزان أوين" (الـذي تم بناؤة بين 1949 و1954)، ليقيس معدل المياه كل صباح ومساء ويرسـله إلى المركز في القاهرة. وقد ساهمت مصر في بنائه مع بريطانيا المستعمرة لأوغندا وقتها، وكنموذج لتعاون ضروري بين الدول المطلة على حوض النيل.

مدرسة جوبا للفكر الاجتماعي

كانت مجموعة المصريين في جوبا محدودة، فثمة مَنْ قَدِم عبر القناة الحكومية كأسـاتذة الطب، وثمة مَنْ جاءوا باختيار "أبو زيد" نفسه كأصدقاء مثلي، ومثل الدكتور خليل حسن خليل الاستشاري الاقتصادي اليساري وصاحب

رواية "الوسية" التي اشتهرت بعد ذلك، كما كان هناك أستاذ كبير من غانا هو "كويسي براه" Kwesi Prah، أستاذ بارز في علم "أنثروبولوجيا اللغة".

كنتُ كثير الجدل بالطبع مع د. خليل حول التجربة الناصرية ومستقبل الاشتراكية في مصر. وكان له قهقهة عالية شهيرة يسمع بها "كامبس" الجامعة كله، فيحبه الجميع ويناقشونه دائمًا. لكن الصديق القريب من تخصصي وعلوم الاجتماع عمومًا كان "كويسي براه"، وهو انشغل معي بمقولة "نهاية الأنثروبولوجيا"، ونقصد "الكولونيالية"، كما انتهى به موقفه مع الحكم العسكري لفترة في غانا إلى استقراره في "كيب تاون"، صاحب ومدير مركز الدراسات المجتمعية المتقدمة لإفريقيا "CASAS". وفي جوبا كان كويسي إضافة حقيقية لي في الشأن الإفريقي، نجوب بحثًا عن العلوم والعلماء الأفارقة، وكان همه الأساسي غير التدريس هو أن يكتشف ماذا فعل الأنثروبولوجيون الأجانب، مثل "إيفانز برتشارد" أو "براون" وغيرهم في معارفهم عن الجنوبيين خصوصًا، باعتبارهم ضمن طائفة "الأنثروبولوجيا الكولونيالية"!

كان وما زال اهتمام "كويسي براه" هو الدفاع عن الشعوب الإفريقية، والبحث عن دراسات جادة حولها لا تغمطها حقها مثل تهمة أنها شعوب تتكلم "بآلاف اللغات" بينما هناك الكثير من "مجموعات لغوية" Cluster قسمها الاستعماريون وأنثروبولوجيون مع تقسيمهم للحدود. وراح يكتشف فضائح عمل بعض الأنثروبولوجيين في جنوب السودان،

بما أظن أنه كتب عنه لاحقًا. وهو نفسه في دفاعه عن "الشعوب الإفريقية" يصر على أن "الشعب العربي" ليس شعبًا إفريقيًّا، وأن هناك "قومية عربية" غير القومية الإفريقية. ومِنْ ثَمَّ ففي دراسة للغات الإفريقية لا يضع بينها العربية، لأنها وافدة أو دخيلة على اللغات الإفريقية الأصلية، والعرب هنا أجانب عن القارة، وهو يعترف بوجودهم وإضافتهم لثقافتها، لكن يمكن اعتبارها لغة ثقافة معينة أو حضورًا قوميًّا آخر له خصائصه، وعلينا أن ندرسها بنفس العناية، لكن على هذا الأساس. ولا ننسى أنهم ساهموا مثل غيرهم في حركة تجارة الرقيق، ولابد أن يشملهم مطلب تعويض إفريقيا عن حقوق أبنائها الأرقاء!

وليتصور القارئ حموة المناقشات التي كانت تدور بيننا في هذا الإطار. ولم يُجد معه كثيرًا حتى الآن قولي بمساهمة العرب في حركة التحرر والتنوير، وكذا دور الكنيسة المصرية والإثيوبية... وحتى عندما بدأت الانشغال بكتابة الأفارقة مبكرًا للغاتهم بالحرف العربي (العجمي) اعتبر كويسي أن هذه الإضافة مساهمة استعمارية مبكرة أيضًا من جانب العرب الذين قرروا التقدم والمساهمة في الثقافة العالمية!

أحببت الجدل معه كثيرًا، لأنه ذلك الجدل الذي يستدعي التفكير الدائم دون "دفاعية" غوغائية أو ساذجة. وهو جدل يعمق البحث، وقد كان سهلًا الحديث معه عن شيوع عملية الاسترقاق في كافة الإمبراطوريات والحضارات يونانية ورومانية وآسيوية، ومعمقة في صراع القبائل الإفريقية، وكيف أن

مصر قد حكمها المماليك (بمعنى الرقيق بتعبير آخر) لفترة مزدهرة حضاريًّا وثقافيًّا لعدة قرون، وبرز منهم أبطال الملاحم العربية موضع فخر الثقافة العربية... إلخ، وحتى مشاركتنا كعرب في حركة التحرير الوطنية بما يفوق العديد من شعوب القارة، وفوق هذا وذاك فالعرب يشكلون أكبر خليط حضاري في أكبر جزء من القارة.. ولكي أغيظه في فترة لاحقة ذكرته بأنه يقبل الآن المستوطنين البيض في الجنوب الإفريقي بلغاتهم ورأسمالهم، مع نسيان الدماء التي سالت على أيديهم من عذاب أهله "الأصليين"!

في ونسات "جوبا" كان كل شيء مطروحًا، وكانت المجموعة السودانية ومعظمهم من اليسار السوداني تُيسر الانطلاق الفكري بشأن معظم القضايا، وتثير الأطروحات لتفكير أبعد حتى بدأنا التفكير في أن نؤسس "مدرسة جوبا" للفكر الاجتماعي الإفريقي"، من مجموعة مثقفة نستحضرهم انتدابًا للتدريس، ثم نعقد حلقات النقاش. وكان يغرينا نفوذ مدرسة "دار السلام" بتنزانيا ومن قبلها "ماكاريري" في أوغندا، وكنت أتحمس لذلك باعتباري نائب رئيس جمعية العلوم السياسية الإفريقية التي تربط بين العديد من المفكرين البارزين في أنحاء القارة، ونفرض حضورنا في أكثر من عاصمة رغم تُهمة اليسار التي تسبقنا هنا وهنالك، وتعرض بعضنا للمتاعب أحيانًا بسبب ذلك... وكنا جادين أن نبدأ بأنفسنا ثم نستطلع الأجواء من حولنا.

قد يكون ذلك ما فرض نفسه بإلحاح حين تلقيتُ دعوة من سكرتارية جمعية العلوم السياسية الإفريقية، أن اللجنة التنفيذية ستجتمع في نيروبي في

خريف 1981، وأن عليَّ الحضور، ولا أعرف كيف كان يمكن تدبير طريق قصير من "جوبا" لنيروبي، بدل السفر إلى الخرطوم ثم إلى نيروبي عبر أديس أبابا... إلخ. صعب علينا التفكير في الطريق البري واستحال تحمله، أو حتى توفره في وقت مناسب.. حتى خرج علينا صديق باقتراح البحث في بعض هذه الجمعيات الأهلية التي تستأجر أحيانًا طائرات هليكوبتر صغيرة، يقودها عادة "أحد المرتزقة" المنتشرين في منطقة البحيرات العظمي وخاصة في الكونغو، والآن حول بحيرة فيكتوريا وجنوب السودان، ويقومون – في حالة توفر مهام صراع حربي – بمهام خدمية مثل النقل... إلخ، وأن المسألة ستكلفني فقط مئه دولار أو حول ذلك.. وكانت "مغامرة" شديدة المغامرة..! والطائرة المزعومة لا تحمل إلا قائدها ومرافقًا واحدًا هو شخصي..! وتمضي على ارتفاع مئه قدم على الأكثر فوق الأشجار والغابات والبحيرات برجرجة تخلع القلب، وبعد ساعتين وجدت نفسي هابطًا مع ذلك الطيار من المرتزقة في منطقة خارج مطار نيروبي، حيث الحرس الشرس والكلاب الأشرس، ولم يأت سؤاله إلا بالإجابة المتوقعه، وهو أنه لا تصريح عنده بالهبوط في المطار. لكنه وزملاءه معروفون، وسيجد من يستقبلني ما دام معي دعوة... وكل ذلك يحتاج فقط لبعض السيولة في جيبي..! تلك السيولة التي أوقفت سيولة دمي حتى مررت من باب المطار إلى الفندق المسمى بيننا!

كان اجتماعًا حافلًا، بأخبار خلعي من وظائفي، وخلع بعض أعضاء مجلس الثورة الأوغنديين (في الجمعية) من مكانهم بعد إسقاط عيدي أمين، وكما ذكرتُ سابقًا فقد اشتهرت جمعية العلوم السياسية الإفريقية بأن أعضاءها

التنفيذيين من كبار الأساتذة والمفكرين، إما أن يكون الواحد منهم مفصولًا أو مسجونًا أو يكون الآخر من الوزراء، ومن هنا شمل تبادل الأخبار تولي رئيس الجمعية "ناثان شـاموياريرا" لمنصب وزير الخارجية في زيمبابوي، وكذلك "إيبو ماندازا" الذي أصبح وزير الدولة هناك، ولا مانع من أخبار هروب السكرتير العام للجمعية بأموالها ليقيم مزرعة مواشي في زامبيا، أثناء خدمته خبيرًا دوليًّا في معهد ناميبيا الذي أقامته الأمم المتحدة في لوساكا..! وغـير ذلك من أخبار مدهشـة! وأنـا ما زلتُ ألتقط أنفـاسي من رحلتي في سماوات منطقة البحيرات العظمي، المشحونة بمجموعات المرتزقة في شركات ذات المقر الآمن في جنوب إفريقيا في ظل حكم الأبارتهيد... وفي ظل كل ذلك جاء تحليل الموقف المضطرب في أوغندا.. وحدثني الأصدقاء من أوغندا، ياش تاندون ونابوديري – من أعضاء مجلس الثورة ضد عيدي أمين حتى خلعهم من قبل الرئيس الجديد –عن مهمة لي أخرى يتوقعون أن أقوم بها في كمبـالا، عند صديقي العزيز رئيس المجلس الثوري الذي تخلص منهم، وهو الرئيس "بول موانجا".

حكايتي في أوغندا: من جوبا إلى نيروبي وكمبالا

كانت أوغندا قد شهدت الانقلاب العسكري عام 1971 وبقيادة الجنرال الشرطي السـابق "عيدي أمين"، الذي أطـاح بالرئيس "ميلتون أوبوتي". وراحت البلاد بين 1971 و1979 في عزلة مع جيرانها، اللهم إلا مغامراته

المشـهورة في توثيق أو توتير علاقاته بين إسرائيل والعرب، والآسيويين، فكسبت إسرائيل علاقة عسـكرية دائمة، وكسب العرب إقرار أن قضية فلسـطين قضية إفريقية في قمة كمبالا 1975، وخسر الآسيويون تجارتهم. ودخلت طائفة الإسماعيلية والإباضية من الهنود والعمانيين والشيرازيين، في مأزق إضافي بالمنطقة، بعد زنجبار. ورغم ارتياح أبناء الشمال الأوغندي بقيادة ابنهم العسكري عقب تجاهل الرئيس "ميلتون أوبوتي" الشمالي أيضًا لهم، فإن أبناء الممالك الجنوبية الغربية في "الباغندة" و"التورو" و"أنكولي" وغيرهم عانوا منه الكثير، وتداخل الطبقي مع القبلي مع الطائفي بشـكل مثير.

حلل ذلك المثقفون الأوغنديون البارزون مثل "ياش تاندون" و"محمود ممداني" و"داني نابوديري" ممن عرفتهم في تلك الفترة في دار السلام. وكانوا مـع تلميذهم الأصغر "يوري موسـيفيني" – الذي أصبح فيما بعد رئيس أوغندا – الذي كان يدرس في الجامعة ويناضل مع الـ"فريليمو" بموزمبيق. وفي إطـار الجمعية الإفريقية للعلوم السياسـية AAPS، نمت العلاقة مع هؤلاء بدءًا من 1974. كنت أقابل ثلاثتهم، وكأنني أتعامل مع ممثلي حركات التحرير.

كانت لهجتهم الماركسية "الماوية" عالية النبرة، حتى أنني عندما دعوتُ مجلس تلك الجمعية للاجتماع في القاهرة عام 1978، كادت هذه اللهجة أن تتسبب في أزمة، حيث كنا قد رتبنا للزيارة مع انتخابي نائبًا لرئيس الجمعية،

وبمعاونـة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وحماس شـخصي من الراحـل محيي الدين صابر، فذهبتُ معهم إلى صحيفة الأهرام في القاهرة للغداء مع باحثي مركز الدراسات الإستراتيجية، وبدأ تاندون ونابوديري خاصـة في هجوم على نظم الطبقة الكمبرادورية في إفريقيا والعالم العربي. وفزع بعض الحاضرين، ولا أذكر من أسمى المجموعة الإفريقية بما معناه "العاصفة الحمراء"، باستخدام تعبير 'Red Prism'. وخشيتُ ساعتها أن يتكـرر معي أو مـع أحد بالمركز ما جرى لصديقنـا المغربي محمد بوزيدي في العام السابق على هذا الاجتماع، فعقب مؤتمر للجمعية بالرباط بضيافة الجامعة، تم طرح عدد من الأوراق بهذه اللغة، فأُبعد بوزيدي من العمادة في اليوم التالي لرحيلنا! لكن ربنا ستر مع أهل الأهرام، هكذا أصبح المثقفون الأوغنديون ظاهرة يسارية خاصة، يقابلهم بدرجة ما يساريو جامعة "أحمدو بللو – زاريا" في شمال نيجيريا. وكان الأوغنديون أقرب للجماعة الثقافية في دار السلام منهم لكمبالا. ومع ذلك لم تنقطع صلتي بكمبالا في شكل آخر للعلاقة، يتوجب ذكرها أيضًا.

كان مـن بـين أصدقائـي الأوغنديـين أيضًـا "بـول موانجـا" (Paul Muwanga) أو باولو موانجا في نطق آخر، والذي كان قد جاء للقاهرة في أوائل السبعينيات. جاء كعضو بارز في اتحاد الفلاحين (أو المزارعين) القوي بين الباغندة، وكتلميذ لموسازي (Ignatius Musaazi) الزعيم الأوغندي المخضرم الذي نعرفه، ورحبنا بـ"موانجا" بهدف التحرك ضد عيدي أمين الممالئ لإسرائيل، كان يعاونه "علي سنيونجا" و"إبراهيم موكيبي" في القاهرة،

باعتبارهم وطنيين زملاء "جون كالي" (أول ممثل للمؤتمر الوطني الأوغندي بالقاهرة) من قبل، ومن رموز المسلمين في أوغندا. وفوجئنا بعيدي أمين يطرد الإسرائيليين ويراسل القذافي ومصر. ويأتي "موانجا" سفيرًا لبلاده، ويعد عيدي أمين مع القاهرة مؤتمر القمة الإفريقية في كمبالا 1975 ليحضره السادات – بعد حرب أكتوبر – حضورًا مهيبًا!

كنـتُ أناو المجموعة الأوغندية في كمبالا أصدقاء حميمين بل وأقرب للعائلية. ومع تقلب سياسة عيدي أمين نال المجموعة ما نالها من تشتيت، مما جعلها على صلة "بجبهة تحرير أوغندا" بقيادة اليساريين "إياهم" في دار السلام... وتحقق حلم "الثوار" حين اهتاج عيدي أمين على الرئيس جوليوس نيريري وقرر غزو تنزانيا! وكان رئيسًا معروفًا بالنزق والمفاجآت.

وإذ بنيريري يأخذ المسألة بجدية تجعله أكثر تعاونًا مع المعارضين من أبناء أوغندا في دار السلام، الذين قرروا "الزحف" المسلح على كمبالا على نمط زحف "ماو" المقدس، لكنه هنا بمساعدة الجيش التنزاني. ولن أحكي هنا تاريخًا مرويًّا في كتب وشهادات علمية، ولكني أتحدث عن روايات سمعتها شخصيًّا أو شاهدتها خارج الكتب. إذ بينما يسمي "الثوار" الأوغنديون ما تم زحفًا شعبيًّا لخلع عيدي أمين في إبريل 1979، فإن كثيرًا من المصادر تتحدث عن "غزو عسـكري" تنزاني لصـد هجوم عيدي أمين المتوقع، مسـتفيدة من الحراك الوطنـي ضده. (ذكرت ذلك مؤخرًا للأصدقاء في اجتماعات إفريقية بعد أحداث 30 يونيو في مصر، لنفرق معًا بين الزحف العسكري

الانقلابي والزحف الشعبي، الذي يحدث أن يجهض خاصة إذا صدقت رواية زحف الشعب الأوغندي، أو من بعده ما وقع من الزحف الثوري للشعب الإثيوبي والإريتري والمالي والكونغولي إلى العواصم!) وبوصول "الأصدقاء" جميعًا إلى كمبالا، ومع الإطاحة بعيدي أمين وتطورات أخرى مرصودة في الكتب، أصبح أصدقائي تاندون ونابوديري من الوزراء، كما أصبح موانجا رئيسًا للمفوضية العسكرية الحاكمة (مجلس الثورة) ومعهم موسيفيني وزيرًا للدفاع!

وخلال عام واحد تقلبت الرئاسة بين أكثر من رئيس، وصمد موانجا رئيسًا للمجلس الثوري وموسيفيني في وزارته. وخرج "الراديكاليون" من الوزارة غاضبين بل مهددين بالسجن ليتحول تاندون ونابوديري إلى لاجئين في نيروبي، ويسكن ممداني في كامبس جامعة ماكيريري (كمبالا) ملتزمًا الصمت!

وأستحضر هنا كل ذلك، لأنني تذكرته، حين حضرت إلى نيروبي قادمًا من "جوبا" لندوة في خريف 1981. وفوجئت بوضع أصدقائي "اللاجئين" في بلد غير ثوري! وتناقش معي طويلًا تاندون ونابوديري معاملين إياي كمن يقول "شفت صاحبك"؟! ويقصدان سلوك موانجا وجناحه معهما! كانا يعرفان صداقتي السابقة معه، ذاكرين أنهما بدورهما سيذهبان للكفاح المسلح ضده لإسقاطه مثل عيدي أمين، وعندما ذكرتهما بصعوبة تكرار التاريخ، وإمكان التفاوض حول الأمر كله، فوجئت باقتراحهما أن أذهب

لكمبالا، لطرح التصالح أو يلجآن لإعداد جبهتهما للقتال! وكان لنابوديري نفوذ في غرب أوغندا المستعد لمقاتلة أبناء مملكة الباغندة والشماليين..!

وكانت مغامرة طريفة حقًا حين توجهت لسفارة أوغندا لأقول للسفيرة أريد موعدًا مع الرئيس موانجا، وبسرعة لأني قد أغادر نيروبي خلال يومين! وبين ذهول السفيرة واضطرارها لكتابة برقية للرئاسة، جاءها الرد بسفري حالًا "وعلى حساب الرئاسة" لمقابلة الرئيس موانجا. ووجدت في كمبالا ترتيبات عالية المستوى بعد نسياني في المطار لفترة. وإذ بالمرسيدس تحملني مع حرس شرف إلى مقر الرئيس في فندق بناه عيدي أمين للرؤساء، ولأدخل بالمصعد مباشرة إلى صالة اجتماع الرئيس مع مجلس الثورة، مما أحرجني كثيرًا. لكن رحب الجميع بي حتى انتهيت إلى الانفراد مع الرئيس موانجا وحكيتُ له أولًا ظروفنا في مصر مع السادات، وإذ به يأمر بإقامتي في جناح السادات بالفندق الذي بناه عيدي أمين للرؤساء الأفارقة في قمة 1975! وهو ما لا يكاد الأصدقاء يصدقونه وعادة لا أروي ذلك إلا بوجود السفير إبراهيم موكيبي سفير أوغندا السابق بمصر، وهو حاليًا بين دار السلام والسعودية ومستشارًا للرئيس. وقد كان حاضرًا مع الراحل على سنيونجا لمقابلاتي مع موانجا، والتي بدأت فور وصولي من المطار إلى قلب اجتماع المجلس الثوري! بل وقد استدعي في إحدي المقابلات يوري موسيفيني وزير الدفاع من الطابق الأعلى، ليروي لي سوء أفعال "إخواني الفلسطينيين" في مساعدة عيدي أمين وقتالهم معه لحركة الثورة، مما جعل قيادة الثورة تصادر كافة مصالحهم بعد النجاح. وقد انتهت مناقشة

هذه المسألة بتحميلي ملف الفلسطينيين إلى أي من قيادتهم في القاهرة، مع استعداده للمصالحة لاهتمامه بالقضية الفلسطينية، وحملت كل ذلك للأخ السفير محمد صبيح مساعد أمين عام الجامعة العربية السابق، ولا أدري ماذا تم بعد ذلك.

أما "مصالحة" المعارضة الراديكالية، أو قبول التفاوض، فأعترف أني لم أستطع أن أنجح في الحصول على "الاعتراف المتبادل" بين الطرفين، وأكاد أكون قد رجعتُ إلى نيروبي دون إنجاز يذكر، إلا "استمرار الحديث عن التفاوض!" ووعد "موانجا" باستمرار الاتصال بي عبر سفارتهم في القاهرة مع محاولات التهدئة!

لكن تقلبات أوغندا لم تتوقف... اضطر المجلس العسكري أو المفوضية إلى إجراء انتخابات عامة ديسمبر 1980، ليعود "أوبوتي" و"حزب المؤتمر الشعبي" إلى الرئاسة (بعد عشر سنوات من انقلاب عيدي أمين ضده!) ولم تمضِ بضعة أشهر حتى انقلب الرئيس الجديد على موانجا، الذي قَبِل أن يكون نائبًا للرئيس أوبوتي، وإذ به يرسله إلى المحكمة ثم السجن بتهم الاختلاس..!

ويلجأ "موسيفيني" زميله إلى النضال المسلح منطلقًا من أحراش "غرب أوغندا". ثم يسقط أوبوتي نفسه عام 1985، بينما يذهب أصدقائي "أشتاتًا" بين أكسفورد ودار السلام ونيويورك (جامعة كولومبيا)، ثم يعتلي موسيفيني للرئاسة منتصرًا 1986. ويبدو أن تلميذ العلوم السياسية في دار السلام أوائل

السبعينيات "ذاكر" درس التقلبات الأوغندية جيدًا، ليبقى على الكرسي حتى كتابة هذه السطور في منتصف عام 2017! تقابلنا في أكثر من مؤتمر فكانت الابتسامة المتبادلة فقط بقايا ذكرى التقلبات الأوغندية!

العودة إلى جوبا

عدت من نيروبي عبر الخرطوم إلى جوبا، لأحكي مغامراتي للأصدقاء، مما كان بعضها مثيرًا بحق.

واستمر الإيقاع والصراع من حول جنوب السودان كما هو، مُضاعِفًا مظاهر التوتر حول نفوذ وزراء الدينكا المتزايد من جهة، ودعم التوجه الإسلامي في الخرطوم لفكرة تقسيم الإقليم وبعون "لاجو" من جهة أخرى، وميل الشباب "الدينكاوي" للعمل المسلح من جهة ثالثة، دفاعًا عن استقلال الجنوب. وفي نفس الوقت كانت أخبار القاهرة غير مطمئنة، إزاء تزايد المعارضة لكامب ديفيد، وزيادة الصراع من قبل "الجماعات الإسلامية" وخاصة الأجنحة الجهادية منها ضد السادات، الذي كان قد دعم نشأتهم وقوّى شوكتهم في أول السبعينيات.

وضمن مغامرات السادات إياها قرر أول سبتمبر 1981 سجن حوالي 1500 سياسي من كافة الاتجاهات، من سراج الدين باشا زعيم الوفد إلى محمد حسنين هيكل حليفه القديم. ولفتني أن ثمة قائمة خاصة بين المعتقلين

تم تحويلها للتحقيق الجنائي بتهمة التجسس والتدبير لقلب الحكم، وكان اسمي بين هؤلاء مع نسبة كبيرة من أعضاء "لجنة الدفاع عن الثقافة القومية"، رغم أنني لم أكن بالقاهرة طبعًا في تلك الفترة. ولم يمضِ حوالي الشهر من الإثارة الدائمة للمجتمع وللإسلاميين حتى وقع اغتيال السادات في السادس من أكتوبر 1981 أثناء استعراضه للجيش احتفالًا بهذه المناسبة من تاريخ مصر السياسي.

أذكر ليلة إعلان اغتيال السادات، أن جاءني أستاذ إنجليزي مجاور لي بالمسكن ليبلغني الخبر، وهو يأخذ مظهر مشاركتي الحزن لاغتيال رئيسي في القاهرة. وإذ به يجدني أهلل سعيدًا مما أثار ذعره، وأظنه انزعج أكثر عندما رآني أخرج إلى الطريق بين مساكن الأساتذة هاتفًا "تحيا مصر" و"عاش نضال الشعب المصري"، بالعربية والإنجليزية! وخرج المعسكر كله ليستمع لحكايتي عن الموقف في مصر، وسبب سعادتي...

وشاركني بعض المصريين طبعًا هذا الموقف. وسرعان مابدا د. خليل حسن خليل يثير المخاوف من أن تبعية النميري للسادات، يمكن أن تؤدي بنا كمعارضين إلى ترحيلنا من السودان. أخذنا في اتصالات بالخارج، وجاءتني رسالة رقيقة من الدكتورة "موزة غباشي"، وهي أستاذة الاجتماع المعروفة في جامعة الإمارات وقتئذ، تقول إنها وأصدقاءنا المشتركين ترتب لاستقبالي بالإمارات، وسوف تجد منفذا في الصحافة بالتأكيد. ولكني كنت أخشى العمل في هذا المجال بالخليج، وأنا باحث وسياسي، والعمل

في الخليج ذو طبيعة خاصة بالطبع. شـكرتُها وأرسلت برقية من سطرين لصديق آخر وأستاذي د. محي الدين صابر وهو أنثروبولوجي من السودان ومدير عام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس وقتها. وجاءني رد سريع جدًّا: "احضر حالًا للتعاقد على العمل في العلاقات الثقافية العربية الإفريقية. وبطاقة سفرك بمكتب المنظمة في الخرطوم."

كانـت مغامرة أن ننزل إلى الخرطوم، ليصبـح المرء قريبًا من يد الأمن العـام، ولكني وجدت نفسي أخيرًا بمكتب أسـتاذنا الدكتور محي الدين صابر بتونس، وخبيرًا استشاريًّا للعلاقات الثقافية العربية الإفريقية لخمس سنوات قادمة في تونس الخضراء.